أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Directeur : BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ĀDĀB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. 24502

العدد السابع
تموز (يوليو) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 7 - Juillet 1954
2ème Année

« منذ اسابيع أذيع في الناس خبر ، مر في عتمة الأخبار ،
« ولعلك قرأته مصادفة وطويت الجريدة. ولقد مر في هذا الخبر
« اسم لعل القلائل فقط يعرفونه : « الدكتور اوبنهايمر » صاحب
« القنبلة الذرية الاولى . ولقد ذكر معه أن الرئيس ايزنهاور
« أمر بتطويق الرجل وبأن يحبس عنه كل سر من اسرار الذرة
« المتفجرة وقالوا : إنه أضحى خطراً ... منذ استيقظ ضميره !
« لقد كان العبقرية الكبرى بعد اينشتاين في العالم الحاضر ، كان
« (فاوست) المتطلع الى كل شيء بأي ثمن ... منذ سنوات. أما
« اليوم فهو (هملت) أتعرف هملت ؟! »

ترددت طويلاً قبل ان افرض على نفسي هذا الموضوع ، خشية ان اكون كالمأسوف على فروسيته (دون كيشوت) احارب الوهم وأطعن بالرمح الخشبي اشباحاً تخلقها لي عيناي. وخشيت أكثر من هذا ان لا يكون للمأساة التي يتخبط فيها الانسان الحديث من صدى في بلدي ، فأين نحن من الحياة الحديثة ونحن لما نزل عند عتبة الهيكل ؟ وأين منا افراحها العرمة إن كان لها من افراح ، ومآسيها الساحقة إن كان لها من مآسٍ ، ونحن بعد على هامشها نجتر مآتيها وننعم بنتاجها ونترك لغيرنا عبء الابداع والخلق ، ونشوة الفرحة البكر عند ارتياد النبع والصرخة الدامية عند الانهيار ؟

على ان قصة الدكتور اوبنهايمر فجرت المأساة لكل عين .. وأما بلدي فسيعرف اليوم او غداً هذه المأساة . إن الحياة الحديثة التي تتسلل حتى الى الصحارى العربية ستفرض يوماً ما مشاكلها . والآلة التي تدخل ارضنا صماء بكماء ستتحدث ذات يوم الى من توقعه المصادفات في قبضتها. وليس من بأس ، في أن نعاني الأزمة ، قبل ان تكتمل عناصرها فينا ، وليس من بأس إن تفجرت المأساة بكل عنفها في نفوسنا . أوليست هي التي تمهد لنا درب الحياة الأصيلة المقبلة في هذا المفترق من الدروب ؟

لكنني سأكتفي بصورة المأساة وحدها دون الدروب ، فأنا لم اقصد الى حل مشكلة بقدر ما اردت ان اضع مشكلة وأن أثير تساؤلاً . أنا اكتفي ان أغفى قارئي اليوم وحول رأسه إشارة استفهام !

من « فاوست » الى « هملت »
مأساة الإنسان في الحضارة الحديثة

بقلم شاكر مصطفى

وبعد فهل للانسان الحديث من مأساة ؟ وأين هي تلك الأزمة الفاجعة التي يشكو منها ؟ انا اعرف ان الشكوى رافقت كل العصور حتى ليخيل إليّ احياناً ان التاريخ كله ليس أكثر من آهة متصلة. وليست هذه هي المرة الأولى التي يطفح فيها القلق واليأس ويجرف الناس ، فقديماً شكا الفيلسوف الفرعوني والكاتب الفينيقي ، وشكا سقراط وشكا ديوجين والرواقيون .. وكثيرون بعدهم قبل المعري وبعد المعري قالوا معه :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على هرم

« فكل من تلقاه يشكو دهره » وأمس ، في اليوم التالي لمعركة (واترلو) سنة ١٨١٥ سجل (لامونيه) الأسطر التالية : « إن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة الى الهلاك . إنه في النزع الأخير كذلك الجريح المسكين الذي لا يرجى له شفاء . إنه يتخبط في دمه ، فكثرة الأخطاء في حضارتنا وقوى

الزمن التي لا تقهر تجررها حتماً الى الغرق » وأخيراً اما ارتفع اليأس اليوم وارتفع « العبث » ليصبحا عقائد وفلسفات للوجود؟

لا شك ان الشكوى الدائمة ميزة إنسانية . والانسان هو الحيوان الوحيد القلق لأنه بعكس جميع الكائنات يحاول دائماً ان يفوق ذاته . وما شكواه غير دليل على تطلعه الدائم الى ما فوقه ؛ أو على الأقل الى انسان آخر جديد ! على اني اعتقد ان عصرنا الحالي من العصور النوادر التي فتكت بها الأزمة في العمق والاتساع والشمول فتكاً يستحق ان يرتفع بها الى مرتبة المأساة ! لقد مر بالانسانية كثير من الأزمات دون شك ولكنها كانت تصيب القطيع البشري ككتلة ، لا الانسان الفرد الشاعر بذاته ، كإنسان اليوم . وقد أوجدت الحضارات السالفة فكرة العالم الآخر فاستطاعت إيجاد شيء كثير او قليل من التوازن مع مساوىء هذا العالم . كما ابتكرت احياناً أمل « المسيح » (المنقذ) أو المهدي المنتظر فتركت كوى الأمل مفتوحة للناس ، ولكن الانسان الحديث يعيش إلى حد كبير دون امل . لا ثقة له بعالم أفضل ينتظره ولا بمهدي يقلب له الأرض فردوساً ! إنه في قدره اليائس أشبه بأبطال المآسي اليونانية ؛ أشبه بأوديب أو هرقل أو ديدال يعرف مصير ويراه ويعرف في الوقت نفسه ألا مفر من الاغفاء على سكين القدر !

وينعت « برتراند رسل » هذا الموقف الانساني اليوم بكلمة « جنون العصر » كما سميت السوداء في مطلع القرن الماضي بمرض العصر . ويسميه احياناً : « جنون الانتحار » لأن الناس في رأيه في الشرق والغرب « يرون التفتيش عن التعاسة والشقاء أكثر سهولة من البحث عن السعادة الحقيقية » . ولكن هذا الجنون قد شاع لدرجة لف بها كل شيء وتسرب حتى الى الحياة العادية . وشرب الناس من نبعته وسيشربون ايضاً كما اضطر الملك العاقل في الحكاية ، ان يشرب بعد ان شرب شعبه ، من نبعة الجنون !

وإنا لنستطيع ان نتتبع مظاهر المأساة الانسانية القائمة في كل خلجة من حياة الناس . وحين تناولتها الأقلام ، في العام الماضي ، بمؤتمر جنيف تبين انها اضحت حقيقة يرتجف لها مخبر العالم كما يهمس بها حلم المصلح وتقطر من اقلام المفكرين فلسفة سوداء كما تنحدر عن أيدي الفنانين ادباً قلقاً وتصويراً متمرداً وموسيقى ثائرة !

دعونا نبدأ بالأدب لا لأنه ألصق بالنفوس وأقرب الى رعشة القلب فحسب ولكن لأن الادباء ساهموا كأية فئة اخرى إن لم يكن أكثر من أية فئة اخرى في خلق هذا الجو من السلبية واليأس المخيم .

ليس فينا من لم يقرأ قليلاً او كثيراً من « الأدب الأسود » وليس فينا من لم يسمع عن قرب او بعد بتلك الخصومة المتصلة التي تكافح بها بعض المذاهب ذلك الأدب وتدعو الى حرقه لكثرة ما يندفع الشباب كالذباب النهم حول موارده وما يعانون في نشوته من ألم قد ينتهي الى الجريمة او الى الانتحار وإلى انكماش في مثل (نرڤانا) الهنود او إلى استسلام رخيص لا يبالي بشيء !

وابطال هذا الأدب الاسود ليسوا بالقلائل ولا بأصحاب الفكر الضعيف وإني لأراهم مواكب طويلة تسكر (أو تسمم لست ادري) إبداع هذا العصر : هذا فرانز كافكا (التشيكي) تقرأه فما تزال تدخل معه من عتمة إلى عتمة ومن مبهم إلى مبهم آخر لا ينقضي ، وتخرج من قراءته دون ان تنتهي إلى شيء ولكنك تحس فجأة انه احتفر في اعماقك هوة رهيبة وانه وضعك وجهاً لوجه امام القوة المجهولة التي تسحقنا فلذة فلذة في عبث حقير غريب . هذه خلاصة ما يريد قوله في كتابه (سد الصين) وفي (الدعوى) و(القصر) ويصل به الامر في قصة (المسخ) إلى ان يتصور فتى أفاق ذات صباح فاذا هو قد مسخ حشرة كابشع ما تكون الحشرات وإن كان ما يزال له عقله الذي يعي وقلبه الذي يحب ونفسه التي ترضى وتغضب . ولا تزيد القصة عن ان تروي ذبول العواطف في قلب الأم والأخت والأب حتى تنتهي الحشرة إلى موت حقير سخيف . وتسأل نفسك في النهاية : أتراه كان يتحدث عني؟ عن هذه الحشرة البشعة المهملة فوق هذا الكوكب !

وننتقل إلى سارتر من فرنسا . إنه يعرض وجهاً آخر من المأساة الانسانية . ليست مأساة القدر ولكنها مأساة الوجود نفسه ، وجودنا الذي لا قيمة له والكون الذي لا معنى لقيامه فان شعورنا بالوجود أثار فينا ما ثار في نفس انطوان روكانتان « بطل سارتر » امام شجرة الكستناء : (الغثيان) « ... لم يتركني الغثيان ولا اعتقد انه تاركي وشيكاً . ولكني لا أقاسي منه اي شيء . إنه ليس بمرض ولا بضيق عارض . إنه انا » وقيمة سارتر كما يقولون هي في انه اعطانا نظرة وقيماً تنطبق مع عالم الشهادة هذا ومع إنسان هذا العصر ، ومع يأس الفكر المعاصر . وإذا كنا نراها باشكال مختلفة في (الأيدي القذرة)

و (الذباب) او في (طرق الحرية) فان « ماتيو » يظل دوماً البطل النموذجي لها .

ونقفز إلى امريكا . فنلقى على الطرف الآخر من المحيط صورة اخرى للمأساة لدى ما يسميهم النقاد بـ « الهدامين » و« الجيل الهالك » ولكنهم مع هذا نالوا، جوائز نوبل للآداب. ومنهم لويس ومنهم فولكنر .

فأما سنكلر لويس فالمأساة عنده هي جحيم التشابه والتجانس الذي انحطت اليه الحياة الحديثة . كأن الآلة قد نشرت رداءها الداكن على ملايين البشر اليوم فاذا هم قطيع لا يدري ما يريد ولا اين يسير او كأنها ابتلعت شخصياتهم وصهرتهم في قوالب تخرج كالدمى بالملايين من المعامل لتحقق حركات رتيبة متماثلة لا تستطيع منها فكاكاً . وفي قصة (بابيت) يقدم لويس نموذجاً للانسان ـ الآلة : رجلاً اجتمع له الثراء والرفاه والنجاح في العمل ولكنه لا يستطيع التخلص من ابسط عاداته : إنه عبد ! لا يستطيع ان يقلع عن التدخين ولا ان يخرج للنزهات التي يحلم بها بل ولا ان يغير المكان الذي يلقي به شفرات حلاقته! برنامج حياته اليومي رسم مرة واحدة وإلى الأبد ! كحياة الكثيرين حولي وحولك !! والنصيحة الوحيدة التي يقدمها لابنه قوله : « إني لم استطع طول حياتي ان افعل ما أريد فاذهب يا بني واصنع ما تريد » . وكل ابطال سنكلر لويس من هذا النوع الذي يريد ولا يستطيع لان الحياة الآلية تلتهمه : « كارول » التي تحاول في قصة (الشارع الرئيسي) ان تحطم التقاليد . « آرو سميث » العالم المثالي الذي يحاول تخليص العالم من التفاهة والجشع . « غانتري » ، « نيكرز » وغيرهم ... كلهم .

مأساة الانسان الحديث

« ينبغي له ان يضحك ووجهه الى الارض » كامو ـ من مسرحية «العادلون»
بريشة ادينا سيسكو

ونمر بعد هؤلاء لماماً ، كتقبيل الفراشة للورد ، بفولكنر الذي يرى ان البشر منفي على هذه الأرض ويعرض من مآسيه لنضال الانسان المرعب ضد الفناء ولكنه يتركه دوماً حطاماً دون امل . وليس من بطل من ابطاله يحاول ان يتعرف سر شقائه لأن هذا العالم برأي فولكنر كان وسيظل شراً لا يدرك .

ونقف لحظة عند « جيد » الذي رأى ان لعنة الانسان الحديث انه لا يحيا ، ولا يتذوق الحياة، فجعل كل رسالته الدعوة الى التجربة والى المعاناة. إنه يصم اذنيه عن سماع كلمة الانجيل «ربنا نجنا من التجربة» ليدعو الى التجربة الروحية والأرضية والفكرية على السواء ويألم ان ينتظر عند الباب لا يدخله وامام الثمرة الحرام لا يذوقها والأفق يصبيه مجهوله فلا يقتحمه ! آمن ان المتعة الكاملة بالحياة هي نسيج وجودنا . إنها ليست خطيئة ولعنة كما كانت عليه تجربة اوسكار وايلد وفيرلين وبودلير وليست وسيلة للمعرفة وللوصول الى الحقيقة كما جعلها غوته ولا بحثاً عن المثل الأعلى او المطلق كما هي عند « هولدرلن » و « رامبو » بل هي وجودنا الانساني الحي.. وهنا كل المأساة!

ولقد يمكن ان نذكر هنا عدداً كبيراً آخر من الأدباء . « دوسباسوس » الأمريكي ، و « كامو » صاحب (خرافة سيسيفوس) وتزفايغ الذي بشر بالقلق والشيطان حتى مد له الشيطان أنشوطة الانتحار، ولكن لا بد ان ننتقل الى لون آخر من ألوان التعبير: الى التصوير . وأكتفي قبل ان نخوض في بيكاسو وماتيس وقبائل الأطياف والألوان ان أسجل تلك الفردية المغرقة التي تجتاح الأدب المعاصر ، وهي في حد ذاتها ثورة وتمرد وصرخة هرب، ثم تلك المأساة التي يصورها بوجوه مختلفة

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

مأساة الانسان في الحضارة الحديثة

– التتمة من الصفحة ٣

وألوان متفـــاوتة . ووراء ستارها ابداً يقبع الانسان كالقط المبلل الخائف !

وليست تلك الفردية ولا هذه المأساة بأقل ظهـــوراً في التصوير . منهما في الأدب ومن المعروف ان الثورة الاصيلة التي حققها التصوير في هذا القرن هي تحطيمه لفكرة المدارس الفنية وتحريره الفنان من سيطرة اي مذهب ذي قوانين وتقاليـــد وتلاميذ . ليس من مدارس فنية ولكن جو محموم بالاساليب التي تتكاثر تبعاً لأمزجة الفنانين وللتيارات الغريبة التي تسوقهم إلى حيث لا غاية ! صحيح ان الينبوع الذي استقى منه الجميع هو الانطباعية : انطباعية (مانيه) و (سيسلي) و (رنوار) و (ديكا) ولكن التمرد بدأ منذ (سيزان) و (فان غوغ) و (غوغان) وهو اليوم أبعد من ان يكون واقفاً عند هؤلاء الذين ما أرادوا هم بدورهم ان يقف عندهم احـــد . لسبب بسيط هو أنهم ليسوا على يقين من شيء ! إن مـــيزة الفنان المعاصر انه في فيض شديـد وخصب متزايد . قلبه طافـــح بالعواطف ودماغه يغلي بالافكار ويده المحمومة تصوغ اشكالاً يرميها في العالم لتأخذ في العيش وتنمو حسب المنطق الجـدلي الذي يختص بها والوسائل التي تتهيأ لها . ولكنها جميعاً ليست بانعكاس امين للواقع لانها تهرب منه الى عماوة التجريد الذاتي .

هكذا يظهر التصوير العالمي اليوم فردياً متمرداً متجاوباً مع فردية الادب وصرخته . ولعل هذا لم يكف الفنانين للتعبير عن سخطهم على الواقع الفاجع فقاموا يعبرون بالاسلوب نفسه عن هربهم وعن ضيقهم بالكون الطبيعي ، وبالنظم الرتيبـــة وبالعقل . إن الاسلوبين الشهيرين اللذين يصطرعان اليـــوم : التكعيبي ، اسلوب بيكاسو وبراك من جهة ، والمتوحش اسلوب ماتيس وفلامينغ من جهة اخرى ، يلتقيان رغم صراعهما في هذه النقطة وهي كرههما للواقع المنظم ! فبيكاسو مثـلاً يهلوان هارب ! لا يرسم ما يرى بعينه ولكن ما تريده نفسه . إنه يحطم الشكل الخارجي الذي لا يعبر عن ذاتية الفنان ويعود فيبنيـه من جديد خطوطاً ومواشير ورؤى وجرات ألوان متساوقـة متنافرة في وقت معاً ! إنه ينشيء من ذلك عالمـاً آخراً حراً يخلص اليه من هذا العالم ، عالماً محور التعبير فيه الفكر المجرد !

واما (ماتيس) بالمقابل فبالرغم من انه يرى ان الحساسية هي صاحبة الدور الاول في التعبير إلا إنه يرسم حسب ما تمليه عليه حواسه ومشاعره الخاصة ، فهو بدوره ايضاً يخلق عالمـه من جديد ويحس به ويحبه . ويقول صاحبه فلامينغ : « إننـــا لا ننتج رسوماً ولكنا نصور رسومنـا . إن التصوير فردي . . كالحب ! » ولعلنا نعجز الآن عن إيضاح ما تعنيه خطـــوط بيكاسو وألوان ماتيس وغيرهما من صراخ وألم ومن فزع ودم وشقاء ، ولكننا لن نعجز عن استخلاص فكرة واحدة منها هي ان التصوير الحديث يحمل على الاقل معنى عميقاً من معـــاني المأساة في هذا العصر .

وفي وسعنا إذا نحن تذكرنا تنهدات الكمان وصراخ البوق ان نقول مثل ذلك عن الموسيقى . . أجـــل فهي ايضاً تعيش المأساة الانسانية : وتعيشها منذ (واغنر) في القرن المـــاضي ومنذ (ديبوسي) ! ويحوم في خاطري هنـا (سترافنسكي) كتحويمة النسر ، ويقفز (شونبرغ) !

سترافنسكي ذلك السريالي البدائي الذي يفرض عليك جنون اللحن فرضاً : ضربات متوالية لا تدع لك من اعصاب تقاوم وهزة متتابعة يحاول ان يفرغ بها كل المأساة التي تـــدمى في ضميره . يحاول ان يعبر عن معنى شعوره بالقلق ويمطر العاطفة الانسانية ببذور سوداء من الرجفة والرعب . حتى في قطعتـه (صلاة الربيع) التي تبدأ بعبادة الارض وقدوم الربيع وتختتم بالرقصة العذراء المقدسة ، حتى في هذه القطعة نجد الربيع يطلب ضحية بشرية ! إن الطبيعة لا تعطي إلا لتأخـــذ وإذا أعطت فرحة الربيع فلتأخذ الجمال ولتأخذ الشباب ولتأخذ المرح !

ويمثل (شونبرغ) ثورة اخرى . إنهم يدعونـــه تعبيرياً ويرون انه عض القيود وحطم حتى الـ (thème) ولكن مـا معنى هذا التحطيم ؟ وكيف قبله الناس إن لم يكن يتجـاوب مع قدر هذا العصر ؟

وبعد فقد نتهم الفنانين أجمعين أنهم على مسافة واحدة من العبقرية او الجنون ، فلنلتمس سبيلاً أهدأ وأحسن منقلبـــاً في الفلسفة ! ولكن اللعنة الفاجعة تلاحق الانسان في هـذا الافق ايضاً ؟ . . مطاردة القدر (لاوديب) ! ولا يكفيني هنـا ان أنقل كلمة من (لونوبل) عن هذا العصر ولعلي لا أنسى معـنى ظهور الوجودية والفرويدية مثلاً . يقول (لونوبل) « لا شيء احسن كشفاً للحاجات الخفية والجراحات العميقة في عصر من

العصور من لعنة العفوية ومن المسائل التي يعرض لها . وهكذا يمكن للمرء ان يتأكد بسهولة من ان حاجة عصرنا المعذب هي حاجة للوجود . إننا حيثما اتجهنا وجدنا وجودنا ، بقاءنا الخالص العميق ، مهدداً . إن قوى الجسد لا تكفي لحماية وجودنا . والفكر تكفنه تلك الهزات المزعجة في الحياة اليومية . إن الجماهير تهدد الشخصية من جهة بينما يخرق الفرد من جهة اخرى وحدة الحياة رداً على ذلك ، ليتحرر . إن زمننا هو زمن القلق الاعظم ، زمن الوجود المهدد . ولم يلقف الخطر كل حياتنا الواقعية ولكنه نفذ الى اعماق الفكر المتيافيزيكي ! » .

ومن هنا نفهم لماذا تسمّت الافكار الشائعة اليوم : ثورة على الالسن وفلسفة في رؤوس المفكرين وابتذالاً لا أبالياً على أرصفة باريس باسم (الوجودية) . إن اصطدام العقائد المتعارضة وانهيارها ويأس الفكر من عالم عدوٍ مقيت أوجد في الناس ظمأ عنيفاً الى التمسك بالوجود قبل ان يضيع والى التساؤل عن هذا العالم كيفَ يمكن ان نعيش فيه ؟

وليست آلهة الصدف هي التي أوصلت الوجودية الى القول بالقلق الكئيب وباليأس . لقد قذف بالانسان في هذا التراب برغمه ، فهو مضطر للوجود . ووجوده هذا هو الذي يصنعه بنفسه . ولما لم يكن هنالك من مبدأ او قاعدة يمكن ان يسترشد بها في سلوكه فهو مرغم كل لحظة على الاختيار بين المسالك المتشابكة التي تعرض له وما أكثرها ! فاذا شعر بالقلق الكئيب فما ذلك إلا نتيجة لتلك المسؤولية الساحقة التي يحملها أمام ما يشكل عذابه وعظمته معاً : امـام وجوده ! أليس يلخص الوجوديون في هذه الافكار البسيطة كل مأساة العصر؟

امـا (فرويد) فتسلل الى كل آفاق الفكر تسلل الظفر الدامي ! فوضع تجاه الانسان العاقل المتسامي ، الانسان — الحيوان ، الانسان — الحشرة ! ويعتبر الناس الغريزة الجنسية أدنى الغرائز فيأتي فرويد ليجعلها ملهمـة البشر وسيدة كل تصرفات الانسان . فسواء نسيت رسالة على منضدة اوأبدعت مثل (واغنر) بارسيفال فعقدة أوديب الجنسية هي التي تسيرك ! ولست أعرض لما في مذهب فرويد من الحق والخطل ولكني إنما اريد ان ترى معي ما فيه من سحق الانسان لذاته ومن كرهه حتى لنفسه ومن إحساسه الفاجع البشع بالعبودية والحيوانية !

ويطول بنا الأمر لو نحن تتبعنا هذه التشاؤمية المسمومة — اللذيذة معاً في الفكر الفلسفي الحديث ، فدعونا ننظر في رحاب العلم هل ثمة ظل منها ؟ إن رصانة العلم التي توحي بالثقة لم تمنع من ظهور نوع غريب من الخوف لدى العلماء المعاصرين . وإذا نحن اتهمنا الفنون بالهوس والفلسفة بلبس النظارات السود فماذا نقول بقلق العلماء ؟

هذا اينشتاين ، صوفي العلم المعاصر ، يصرح انه « في المعركة المقبلة سيذهب ثلثا الجنس البشري » وهذا اوبنهايمر يصيح يوم تفجير القنبلة الذرية ، صيحته الخنيق : « لقد عرف العلماء طريق الخطيئة »!! وهذا هارولد يوري ، حامل جائزة نوبل ومكتشف الهيدروجين الثقيل وأحد محققي القنبلة الذرية ، يقول في عبارات غريبة السواد : « اكتب لاخيفكم . انا نفسي خائف . كل العلماء الذين اعرفهم خائفون » . وينتهي بأن ينعت هذه الكرة الهائمة « بدار المخافة » ... واخيراً هذا جان روستاند احد كبار العقليين والعلماء الانسانيين يكتب : « يكفي عدة علماء ليهبوا الانسانية قوة خارقة ولكن لا يكفيها بضعة عقـلاء ليجعلوها جديرة باستخدام تلك القوة . لقد جعل منا العلم آلهـة قبل ان نستحق ان نكون بشراً . سنتعلم تحرير الفعاليـة الذرية . وسنجول بين الكواكب وسنطيل من حياتنا ونبرىء مسلولنا ولكنا قد لا نجـد وسيلة لان نحكم من قبل اكثر الناس جدارة بحكمنا !! » .

ولقد عاد العلماء ينظرون اليوم من جديد في ذلك المبدأ الذي اعلنه كلود برنارد بقوة فلم يجرؤ احد على مهاجمته ، ثم اكده هنري بوانكاريه كحقيقة نهائيـة في صفحة شهيرة ختم بها كتابه (قيمة العلم) : اعني مبدأ : العلم للعلم ! وليسوا بالقلائل الان اولئك الذين أخذوا ينكرون هذا المبدأ . وبينهم فيزيائيون عالميون أمثال لانغمير الامريكي واوليفانت الانكليزي عادوا يفتشون في العلم عن الشعور الانساني والضمير . ويرددون كلمة بيكون ورابليه «علم بلا ضمير ليس سوى تحطيم للروح » !

★

لعلي ، بعد هذه الجولة من افق الى افق استطعت او أوحي بهذه الهزة التي تعذب الضمير الانساني اليوم ، وتملأه جراحات ولهيب عذاب . ويظهر اننا كلما ازددنا تقدماً في الزمن ، إن لم يكن في الحضارة ، ازددنا قلقاً بدل ان نزداد تفاؤلاً وثقة . فما السر في هذه المأساة ؟.

يخيل إلي ان ليس في الأمر من سر وإنما هي احداث تركض من حولنا وأسباب تهزج تحت انوفنا . وليست تلك الأحداث ببسيطة ولا بعارضة ؛ فكما اختلفت وجوه المأساة في الظهور

فهي كذلك مختلفة في المنابع السود . وإذا كان لها أصابع الأخطبوط التي تهتصر كل نواحي الفكر فلها بالمقابل منابت كجذور الكروم بعيدة ومستحكمة !

على انني احسب ان في الرسم تلخيصها ، رغم تعقدها وارتباكها في ثلاث فكر :

أولاً — فشل الفكر الحديث ، في مختلف مجالاته. فلقد فشل العلم وهو الركن الاول في الحضارة الحديثة . فهو لم يستطع ان يحل مشاكل الانسان إن لم يكن زادها . ولقد منحنا العلم في القرن الماضي تفاؤلاً حسب الناس معه ان النجوم في قبضة أكفهم وسيلعب بها الاطفال في المستقبل ، ولكن سرعان ما هدم العلم نفسه بنفسه منذ حاول ان يفهم ويفسر بدل ان يربط ويقنن ! فلا العقل الذي يعتمد عليه بالآلة التي لا تخطىء ولا المنطق الارسطاطاليسي الذي يعتمده ، بالمنطق الوحيد ، ولا الزمان والمكان اللذين يقيسهما بأمرين واقعين ، ولا الحوادث التي يقتطعها من الحياة بخالية من الاصطناع . ثم إن الآراء الحديثة في بنية المادة قد اكدت بعد نظرياتنا عن الواقع. ذلك ان كل قياس دقيق للظواهر الأولية الذرية قد اصبح مستحيلاً استحالة نهائية . بمعنى ان مبدأ التقيد العلمي يجب ان يستبدل به مبدأ عدم التقيد ! ولا يبدو أصلد القوانين العلمية اليوم اكثر من مجرد احتمال !

ولقد فشل الفكر ايضاً في الفلسفة ، وتلك المفاهيم المبسطة التي نظم على اساسها المعرفة منذ كانت وهيغل اضحت اليوم مقولات جامدة ثقيلة ، هرأها العث . فلا العقل موزع بقسط ثابت بين الناس ولا هو وجد منذ وجد ، بشكله القائم دون تطور . عدا ان جزءاً كبيراً من مقولاته قد نقض وقفز الناس وراءها ...

وليست الغلطة في النتائج التي وصل اليها فحسب ، ولكنها في الطريقة ايضاً . إنها غلطة غاليله الذي فرق بين الكمي والكيفي ودعا ، مع انتصار نظارته ، الى هجر الكيفي المعقد الذي لا يقاس والاكتفاء بالكمي ... وتلاه بيكون فجاء بتجريبيته الهزيلة وباستقرائه المبسط ، ثم وضع ديكارت الخط النهائي في ذلك الاتجاه بتلك الثنوية التي فكر فيها بين الفكر والجسد ، بين ما هو روح وما هو مادة ! ! وتم النصر اخيراً لما وجد العلم الآلة : معجزة الرفاه المادي عند الناس !

لكن تناسي المشكلة لا يكفي لتلاشيها وتعقدها ليس عذراً لحذفها . وهذه الغلطة في الطريقة التي قادت العلم اول الامر الى المجد دفعت هي نفسها الانسان الى التلاشي والضياع ثم عادت فقتلت العلم الذي أوجدته ... وهل بامكان احد ان يؤمن ان الانسان هو فقط هذا الهيكل العضوي المتحرك ؟ إذا لم أكن أنا غير هذه الامصال الدموية والاعصاب الفيزيولوجية وذلك التوازن الكيماوي — الفيزيائي في الخلايا والبروتوبلازما ، فأين إذن قلقي وفرحي واين حبي وإرادتي وأين اندفاعي في المصير؟ وإذا كانت اشعة المغيب هي فقط موجات كهرطيسية ، فمن اين هبط إذن ذلك الجمال الذي يراه الفنان في ألوان المغيب ؟ وإن كانت ألحان الوتر موجات تنداح كما تنداح الدوائر على صفحة الماء ، فلم تهتز انت وأهتز انا لالحان الوتر ؟ .

لقد تلفت الانسان اليوم فاذا بكل الذي بناه حطام وعليه ان يعاود البناء من جديد ! كذلك المسكين سيسيفوس في الاسطورة اليونانية قضت عليه الآلهة ان يحمل الصخرة الى أعلى الجبل لكنها قضت في الوقت نفسه بان تزلق من يديه كلما شارف بها القمة ...

ثانياً — فشل القيم ... أجل فقد فشلت القيم بدورها في هذا العصر .

فشلت القيم الدينية الخالصة . وما أدري إذا كانت كلمة برونشفيك تكفي في تبيان هذه النقطة حين يقول في كتابه (تقدم الوعي) : « إن أقوى حجة توجه الى كل دين إيجابي هي ان المؤمنين به يستحيل عليهم ان يقدموا مضموناً ذهنياً محدداً لحالات انفعالية محترمة » . والواقع ان القيم الدينية تأخذ بوضوح الشكل الذاتي الخاص وتنكمش الى زوايا المعابد . ولا يستطيع حتى أبعد انصارها حماسة ان ينتقل بها من ميدان القناعة الايمانية الى مجال الحقيقة النهائية !

وفشلت القيم الخلقية ايضاً ، فقد اضحينا نعرف ان مبادىء الأخلاق ليست مستلهمة من مثل عليا لا تتزحزح ولكنها وقائع نفسية او تاريخية او اجتماعية متطورة متقلبة ، ثم إن قيمها نسبية ، نسبية حتى لترف رفيف جناح الطائر لكل ريح !

وقد رافق هذا النفي لكل نظرية عقلية في السلوك اتجاه نحو رومانتيكية جديدة تتبع دوستويفسكي وكير كغارد ولا تشق طريقها نحو السلام إلا فيما وراء الأمانة والعدل والواجب وإلا خلال اليأس والقلق !

وفشلت القيم في نصب مثل عليا للناس ؛ فأفكار الانسانية الواحدة والتقدم المستمر والمدنية ... الخ ، كانت تتناسب مع

الوضع العقلي البارد الذي اندفع فيه الناس في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه. أما اليوم فإن الشك يقرض ضميرنا قرضاً حين نسأل انفسنا : فيم ولمن نعمل ؟. وأستطيع هنا ان أذكر على سبيل المقارنة تلك « الحضارات السعيدة » كما يدعوها جاك ماريتان لليونان القديمة ولفرنسا البيضاء وللشرق العربي الاسلامي، وأقول إنها كانت أكثر نجاحاً في فهم الانسان ومنحه الطمأنينة . وقد كانت مؤسسات العائلة والدين والملكية الفردية أكثر قرباً الى قلب الانسان من النظم الحاضرة !

وأسارع الى القول إني لا ابكي بالطبع على تلك المؤسسات المنهارة ولا اتفجع، فأنا اعلم ان الضرورة التي أوجدتها هي نفسها التي نقضتها، فما كان أي عمل إنساني في يوم من الأيام سوى مرحلة انتقال الى عمل آخر يليه أو يسمو عليه، ثم إني لست أدعو للرجعة — وأنا اعلم انها عقيم — إذا قلت إن الحضارات الأولى والدينية منها خاصة كانت أكثر إسعاداً للانسان من الحضارة القائمة . ولكني اهفو إلى حضارة اخرى مقبلة تجعل همها توفير سعادة أعمق من تلك السعادة الاولى واعنف . وأتطلع إلى حل لمشكلة الانسان ليس من الضروري ان يكون حلاً دينياً لأن مثل هذا الحل لم يعد كافياً وليس من الضروري ان يكون حلاً نهائياً لأن الحقيقة حية وجدلية ولكن يجب فقط ألا يضحي فيه بشيء مما كسبه الانسان حتى اليوم !

ثالثاً — نسيت الحضارة الحديثة الانسان وأساءت فهمه! صحيح ان الحضارة الحديثة ابتدأت سيرها بإيقاظ الفردية في الانسان ! كان مجتمع القرون الوسطى يريد الناس على ان يكونوا نسخاً واحدة خانعة ، قطيعاً تتساوى فيه كل الرؤوس ، وكانت الهمسة الاولى في الحضارة الحديثة بعث الانسان — الفرد ، وصحيح ايضاً ان هذا الانسان تمرد على كل شيء إذ ذاك حتى على الدين ولقد جرؤ مسيو كلود ان يقول لبوسويه مرة وقد سأله :

— إلى اي مدى تصل تلك الحرية التي يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة . أليس لها حدود ؟ أكل فرد إذن ، كل امرأة ، كل جاهل مهما كان يستطيع ان يعتقد ويجب ان يعتقد انه يدرك كلمة الله اكثر من مجمع بأجمعه ولو اجتمع من جهات العالم الاربع ؟!

أقول : جرؤ مسيو كلود ان يجيبه منذ القرن السابع عشر : اجل إنه لكذلك !

وصحيح ايضاً ان كل العلوم حامت حول الانسان وان الحياة السياسية قد سارت في الاطار نفسه فانتقلت اوروبا من الاقطاعية إلى البورجوازية إلى الحكم الشعبي الواسع . من حلقة ضيقة من الحكام إلى اوسع منها فإلى اوسع، وكل المشاريع اليوم تهدف إلى تأمين اكبر قدر من العدالة الاجتماعية ومن الرفاه البشري. صحيح كل ذلك ولكنها حضارة الجماهير، هذه الحضارة، لا حضارة الفرد . لقد تحولت بسرعة من الاهتمام بالكيفية إلى الاهتمام بالكمية ، وضحت بالحرية لحساب المساواة ونظرت الى جميع البشرية ككتلة متشابهة عالجتها بسذاجة مبسطة غريبة وبكلمة واحدة : اهملت الانسان — الفرد وعادت لفكرة القطيع . أليس هذا ما تفهمه اليوم المذاهب الجموعية ، كالماركسية والديمقراطية مثلاً من الانسانية ؟

ثم إن هذه الحضارة أساءت فهم الانسان . لقد ظنت ان « وضعية » كونت قدر نهائي، وان الحيوانية التي رمى بها داروين الانسان ستبقى وصمة أبدية في جبينه كوصمة العبيد ايام الرومان . فهمته على انه جسد فحسب ، ولست انكر انها في هذا السبيل قد استطاعت ان تقدم له الكثير من الرفاه العضوي ومن راحة الخلايا والنسج والعظام، ولكن أين راحة القلب والروح ؟ « إن أحلامنا ومشاعرنا ليست أقل حقيقة من معدنا. والفرح والالم لهما نفس شأن الشمس والقمر بالنسبة الينا . وعالم دانتي وبرغسون اوسع بكثير من عالم كلود برنارد وبابيت ! إن عالم المادة الجامدة رغم اتساقه وسهولته وجماله (او لذلك كله) أضيق من ان يتسع للانسان ويدخله في مفاهيمه . إن الانسان كائن حي في الوقت الذي هو فيه شيء مادي وهو منبع فعاليات بقدر ما هو خاضع لميكانيك العضلة . إن الانسان الذي بدأ يفهم نفسه هو الذي يتألم اليوم .

★

وبعد ! فان عصر (غوته) الذي طلب وهو على فراش الموت اكثر فأكثر من النور قد انتهى ، وفاوست الذي كان يريد ان يعرف كل شيء بأي ثمن ، اصبح في ذمة التاريخ ... مات ومات معه مفيستو ! اما إنسان اليوم فهو (هملت) الذي استوت عنده جميع القيم والحدود فما يدري اين الطريق ؟ وههنا مأساته الكبرى!

أتكون هذه المأساة يا ترى إرهاصاً لفاوست جديد ؟ لما فوق فاوست Super-Faust ؟

دمشق

شاكر مصطفى